

الجنسانية بين التذكير والتأنيث

رؤية واقعية أنثروبولوجية نقدية

كلمات مفتاحية: النوع - الجندر - البيئة - التنشئة الاجتماعية

أ.م.د يحيى خير الله عودة

قسم الأنثروبولوجيا والاجتماع
كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
dr.yahya306@gmail.com

Sexuality between reminders and Tanith

A realistic view of critical anthropology

Key words: Gender - Environment - Socialization

Assistant Professor

Yahya Khairallah Odeh

Department of Anthropology and Social
Mustansiriya University - College of Arts

dr.yahya306@gmail.com

المخلص

يعد موضوع "الجنس" أكثر الموضوعات أهمية من حيث الكم البحثي على مستوى الدراسات الاجتماعية والإنسانية عموماً، وتحديدًا في مجال علم الإنسان لما يشكله هذا الموضوع من قوة نظرية واضحة إن على المستوى الفردي البيولوجي أو المستوى الجماعي/الاجتماعي.

وقد انقسمت الدراسات الجندرية إلى نوعين أساسيين بناءً على طبيعة البحث المدروس والانتماء المدرسي والإيديولوجي، وهذان النوعان يتركزان على نحو صريح (1) بأن النوع ظاهرة بيولوجية، أو أنه (2) ظاهرة اجتماعية، وبين معنى الظاهرتين برزت دراسات أخرى موضحة بأن فيما بين هذين النوعين تناسب مطرد لجانب مع افتراق نسبي لجانب آخر، أو بمعنى أكثر وضوحاً: أن ثمة تداخلاً معرفياً بين الأسباب البيولوجية والأسباب الاجتماعية في تكوين الظاهرة الجندرية.

وقد عرضنا في هذا البحث الأساس التكويني البيولوجي للنوع على نحو موجز حسب مقتضى البحث ومن ثم أردفنا ذلك ببحث مختصر عن الطبيعة الاجتماعية للنوع وتأثيراتها في بناء وتشكيل السلوك الجندري. ومن أجل تحقيق مبدأ التكافؤ في البحث فقد عمدنا إلى بناء معالم نظرية تقف على نحو انطولوجي/وجودي من هذين المفهومين حول الجنس، وأقصد بهما المفهوم البيولوجي والمفهوم الاجتماعي، وتقوم هذه النظرية على استيضاح مفهوماً جديداً يتجاوز التفسيرات التقليدية المتطرفة للنوع ويعتمد على (مبدأ التكامل) بين النوعين الأساسيين: الذكر والأنثى.

إن مبدأ التكامل هو مبدأ حياتي ضروري من أجل تحقيق مبدأ المساواة والتكافؤ بيولوجياً واجتماعياً، فالنوع -سواء كان ذكراً أو أنثى- هو حالة وجود ضرورية للتعريف بالوجود الآخر، فلا تعريف نوعي وجودي من دون وجود نوعي للآخر، إن الاختلاف بين النوعين فسلجياً أو بيولوجياً أو اجتماعياً هو اختلاف حتمي للتعريف بالوجود الآخر، ولا نوع لأحدهما مستقل عن النوع الآخر، إذ أن الحتمية الوجودية للنوع الواحد ضرورة حتمية أخرى لا بد منها، وهذا ما نقصده بالمعنى التكاملي للنوع. ويتجاوز هذا المعنى حيثيات الاختلاف النوعي بيولوجياً واجتماعياً، وكذلك يمنح المبدأ التكاملي عملية التكافؤ سلطة مساواة واضحة.

إن المبدأ التكاملي يبين على نحو صريح أن الاختلاف الجندري ليس سمة طبقية لأحد النوعين على النوع الآخر، وأن الاختلاف الموجود ضرورة للتكامل يكون على أساسه المجتمع مشكلاً بنائياً ووظيفياً اعتماداً على التمايزات الجندرية.

Summary

Gender is the most important topic in terms of quantitative research at the level of social and humanitarian studies in general, specifically in the field of anthropology because of the theoretical strength that is clear on the level of individual biological or collective / social level.

Gender studies have been divided into two basic types based on the nature of the studied research and the school and ideological affiliation. These two types are explicitly focused on (1) that the species is a biological phenomenon or that (2) it is a social phenomenon and between the meaning of the phenomena there are other studies that show that between these two types Is a steady fit for a side with a relative divergence of another aspect, or more clearly: that there is a cognitive overlap between biological causes and social causes in the formation of the gender phenomenon.

In this research, we presented the biological formative basis of the species in a brief manner as required by the research, and then we presented this with a brief research on the social nature of gender and its effects on the formation and formation of gender behavior. In order to achieve the principle of symbiosis in research, we have constructed anoretical and existential concepts of these concepts on gender, namely the biological concept and the social concept. This theory seeks to elucidate a new concept that goes beyond the extreme traditional interpretations of gender, Between the two main types: male and female.

الجنسانية بين التذكير والتأنيث رؤية واقعية أنثروبولوجية نقدية

أ.م.د يحيى خير الله عودة

قسم الانثروبولوجيا والاجتماع
كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
dr.vahya306@gmail.com

مقدمة

تقوم دراستنا هذه حول طبيعة الاختلافات النوعية الحاصلة بين الذكورة والأنوثة باعتبارهما الجنسان اللذان يدعمان خصائص الوجود والاستمرار في الحياة. إن خاصية الاستمرار continuation تستند على عملية وظيفية يقوم بها كلا النوعين ويتحققان من خلال ذلك التواصل اجتماعيا وبيولوجيا، فالتواصل الاجتماعي ضروري على النحو السوسولوجي والنفسي، فالكائن الإنساني ذو طبيعة اجتماعية تواصلية يقوم من خلال محددات وظواهر كثيرة مرسومة له. وكذلك فإنه ذو طبيعة بيولوجية وهي طبيعة حتمية للتكاثر وللحفاظ على مميزات وخصائص النوع. ولولا كلا الطبيعتين لما كانت ثمة حياة ولما استمر تواصلنا مع بعضنا البعض.

وقد انبثق خصائص هذا البحث من رحم المعاناة الابستمولوجية التي كانت تضفر نفسها للدفاع عن إطار محدد وخاص سواء على نحو عرقي/عنصري أو من خلال التفسيرات المعرفية الناقصة. وقد عملنا في تفسير حقيقة الخصائص النوعية على (مبدأ التكامل النوعي The principle of sexual integration) بين الجنسين محققين عبر ذلك ملامح نظرية عامة تقر بهذا المبدأ التكاملية على اعتباره المبدأ الصحيح في تفسير التمايزات النوعية والاختلافات الجنسية. وإن كلا النوعين مكمل لأحدهما للآخر متجاوزين أثر ذلك التفسيرات العنصرية والتأويلات الابستمية المتطرفة في تعاريفها للأجناس المختلفة.

وبناء على ذلك؛ فقد بدأنا في استعراض التنظيرات الخاصة بالجنسانية، وآراء العلماء حول ذلك والمدارس المختلفة، وقد تطرقنا كذلك إلى بيان خصائص كلا النوعين من التفسيرات البيولوجية والاجتماعية، ومن ثم حاولنا انتقاد تلك النظريات على اعتبارها تفسيرات متطرفة في تفسيرها ومنحازة في تأويلها للمعاني الكامنة في كلا النوعين/الجنسيين. وقد أقررنا مبدأ عام لنظرية تقود المعرفة بهما إلى تأسيس منهج خاص وفرضية محددة حول التكامل الضروري بين

الجنسين وأن كل واحد منهما يكمل الآخر ويعاضده ويسنده اعتمادا على ضرورة عامة نؤمن بها جميعا وهي: أن الحياة -لكي تستمر- ينبغي أن يكون ثمة تكامل يقود عملية استمرارها. وهو منطلق وتفسير انثر وبولوجي بعيدا عن التصورات الابستمولوجية التي لا توجد إلا في أذهان معتقديها.

المحور الأول: عناصر ومفاهيم ومنهجية البحث

أولاً: عناصر البحث

لكل دراسة أو بحث موضوع محدد يسير انطلاقاً من مفاهيم متنوعة ومنهجية وأهمية وهدف خاص. ولهذا فسوف نستعرض هنا الإطار الموضوعي للبحث وما يشكله من أهمية نظرية أو عملية ومن أهداف تترتب على جميع ذلك.

1: موضوع الدراسة:

يعد موضوع الجنسانية Sexuality أحد الموضوعات المهمة في الدراسات الانثروبولوجية والاجتماعية عموماً، فقد أخذ حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين والدارسين، ويتطرق موضوع بحثنا إلى حقيقة التغيرات النوعية على المستويين الاجتماعي والبيولوجي، وكيف يؤثر ذلك على مجمل القناعات المتميزة بينهما. فقد انقسم الدارسون والمتخصصون في مجال الدراسة النوعية/الجنسية إلى باحثين تغلب عليهم الطبعة الاجتماعية في مقابل الطبعة البيولوجية، وإلى باحثين يعتبرون أن الجانب البيولوجي هو المحدد الفعلي للسلوك الظاهري الاجتماعي.

ومن أجل تأسيس حالة توفيقية -على نحو علمي وليس اعتباطي- فقد عمدنا إلى إيجاد مخرج ابستمولوجي لهاتين النزعتين، فقد كان بحثنا بمثابة دراسة نقدية لكلا الاتجاهين، وإعطاء نظرة واقعية للحقيقة النوعية التي تعني التكامل القائم وفقاً للجنسين وتبعاً للحالات الطبيعية التي وجدت لكل منهما.

ولذلك كان النوع مبرراً للتكامل أن على الصعيد البيولوجي أو الاجتماعي، فليس ثمة انتقاص أو دونية نوعية، وليس هناك من رفعة جنسية لهذا النوع أو ذاك، بل أن الاختلاف هو بحالته وطبيعته ضرورة واقعية للتكامل وحتمية حقيقية للاشتراك (والاشتراك).

2: أهمية البحث:

تنطلق أهمية البحث من حقيقة أساسية يؤمن بها الباحث وهي أن النوع يكون بمثابة حالة طبيعية للوجود المتكامل بين الجنسين وأن التغيرات مسألة حتمية لا بدّ منها، وعلى ضوء ذلك تقوم أسس الحياة وتبنى المجتمعات وتستمر. أن الأهمية العلمية تجذب انتباه الباحثين والقراء عموماً

على حقيقة المعرفة بهذا الاختلاف، فهي تعرفهم بأن الجنس ليس من نوع المسألة التراتبية في الواقع الطبقي الجنساني، وإنما مفهوم الطبقيّة والتراتبية ليس لهما وجود فعلي وإنما هو ترتيب ذهني ومتصور عقلي فقط.

ونحن -وبناءً على هذه الرؤية الابستمية- نحاول جاهدين إلى تعريف الباحثين بهذه المسألة الضرورية التي تجعل من قيم الحياة -في الأسرة أو المجتمع- تحيا من أجل التواصل والاستمرار.

3: أهداف البحث:

يمكن تلخيص أهداف البحث بنقاط:

1- تغيير النظرة التاريخية الكلاسيكية للنوع على اعتباره منطلقاً دونياً أو عيباً جنسانياً أو اختلالاً في العملية التربوية.

2- إعطاء مفهوماً مغايراً لتعريف الباحثين والدارسين على أن التغيرات النوعية هو تغير ضروري وجودي على أساسه تقوم مناشئ الحياة وهو حالة ضرورية من أجل التكامل.

3- أن الحياة يجب أن تقوم وفقاً لهذا التكامل، ويعني مفهوم التكامل النوعي هو أن الجنس الواحد في حالة احتياج ضروري لغيره من الجنس الآخر. ولا يعني هذا الاحتياج النقصانية في الجنسية وإنما يعني النقص للاحتياج المتبادل.

4- تأطير مفهوم التكامل الجنساني في قوالب نظرية تكون هدفاً لاهتمام الباحثين في الدراسات المستقبلية والبحوث البعدية التي يراد منها أن تنطلق من هذا المفهوم الحضاري (التكامل الجنساني).

ثانياً: مفاهيم البحث:

لكل بحث أو دراسة لا بدّ لها من مجموعة من المفاهيم الدالة للتعريف بتلك الدراسة أو البحث، وذلك من أجل إعطاء رؤية مفاهيمية واسعة عن الموضوع المراد بحثه.

1: مفهوم النوع (الجندر) Gender

ويمكن تصنيف النوع -تعريفياً- إلى النوع الاجتماعي والنوع البيولوجي وذلك تبنيًا للاختلافات المعرفية في تعريف الجندر وفقاً للمدارس المتميزة مع بعضها البعض. واستناداً إلى الرؤية الابستمولوجية لعلماء كل مدرسة على جهة.

النوع الاجتماعي / النوع البيولوجي

تعد دراسة النوع الاجتماعي (الجندر Gender) من المجالات الرئيسية التي تمت منذ حوالي ثلاثة عقود، فلقد استخدم مفهوم النوع الاجتماعي في السبعينات ليشير للاختلافات الاجتماعية

والثقافية للأدوار والوظائف لكل من الرجال والنساء والتي يمكن تغييرها باختلاف المجتمعات والثقافات والأزمنة، وذلك في مقابل مفهوم الجنس Sex والذي يشير للاختلافات البيولوجية بين الذكور والإناث والتي تحدد وظائف وأدوار لا يمكن تغييرها مثل (الحمل، الإنجاب، الإخصاب) (فاتن محمد رشيد، 2017، ص 21).

فالجندر هو تكريس الوعي بالتمايز بالانتماء البيولوجي الجنسي للشخص وبين هويته الاجتماعية كرجل أو كامرأة أي استطرادا للتفريق بين المحددات البيولوجية لجنس الإناث (أو الذكور) وبين المحددات الاجتماعية والثقافية للواحد منهما (مجموعة باحثين، 2005، ص 26). ويرى عدد من الباحثين أن الجندر في أسسها العريضة مقولة ثقافية وسياسية تختلف عن الجنس sex باعتباره معطى بيولوجيا، وتعني الأدوار والاختلافات التي تقرها وتبنيها المجتمعات بين الرجل والمرأة. والبحث في الجندر يمكننا من تعويض الماهية البيولوجية بالبنائية الثقافية، بحيث يتبين لنا أن الاختلاف بين الرجل والمرأة مبنى ثقافيا وإيديولوجيا وليس نتيجة حتمية بيولوجية. ثم أن المفهوم أداة فعل في الواقع وبحث في مجالات التنمية من حيث التقسيم الاجتماعي للأدوار.

إلا أننا يجب أن ننتبه إلى النقائص الكثيرة في هذا القول: فهو قد يؤول إلى إبراز الفوارق من جديد بين الرجل والمرأة، فيلغي واقع اضطرابات الجندر ويفضي إلى اعتبار الجسد وعاء سلبي متقبلا للإيديولوجيا الجندرية المهيمنة، والحال أن الجسد بيني أنوثته أو ذكورته أو غير ذلك في أشكال إبداعية تتحدى البناء الاجتماعي للهويات، ويمكن أن يقع خارج البناء الثنائي: رجل/امرأة. ثم أن الجندر ليس المحدد الوحيد للانتماء الاجتماعي. ولنشر إلى مفهوم التقاطع intersectionality في الدراسات الأميركية المعاصرة، أي تقاطع أشكال الجور المختلفة لدى الأصناف الاجتماعية المهمشة، بحيث يجتمع مفهوم العنصر والطبقة والجندر في كيفية عيش النساء السود مثلا لسواهن وأنوثتهن وطبقتهن في الوقت نفسه.

إذن أخذنا وفق هذا المفهوم نمطين أساسيين من التفسيرات حول اختلافات الجنس فهناك مجموعة من التفسيرات التي تركز على العوامل البيولوجية، بينما تركز المجموعة الثانية على العوامل الاجتماعية.

2: مفهوم علم البيئة concept of Ecology

يعتبر علم البيئة أحد فروع علم الأحياء الهامة وهو يبحث في الكائنات الحية ومواطنها البيئية ويعرّف على أنه العلم الذي يبحث في علاقة العوامل الحية من حيوانات ونباتات وكائنات دقيقة

مع بعضها البعض ومع العوامل غير الحية المحيطة بها فمثلا بيئة الأشجار تتأثر بعوامل البيئة المحيطة بها من تربة ومناخ و عناصر فيزيائية كالجاذبية والضوء (عوامل غير حية)، ومن ناحية أخرى فهي على علاقة مع كثير من الكائنات الحية والتي قد تكون دقيقة كالحالب والفطريات والأشنات، وقد تكون كبيرة كالطيور والزواحف والثدييات وكلاهما يؤثر في الآخر سلبا أو إيجابا ومحصلة هذه التأثيرات في بيئة الأشجار.

وكلمة البيئة في اللغة العربية مشتقة من (بؤ)، ويقال: تبؤت منزلا بمعنى نزلته وأقمت به (هياته)(ابن منظور، ج1، ص480)، وبذلك يمكن القول أن كلمة البيئة تعني المكان وحالات الطبيعة. ويتطابق ذلك إلى حد بعيد مع تعريف علم التبيؤ Ecology والذي يعتبر أحد فروع علم الأحياء Biology، أي أن علم التبيؤ "هو العلم الذي يهتم بدراسة الكائن الحي في منزله". وفي سنة 1869م قام العالم الألماني Erns Maeckel بتعريف علم التبيؤ بأنه علم يبحث علاقة الكائنات الحية بعضها مع بعض ومع الوسط أو المحيط الذي تعيش فيه (معن خليل عمر، 2004، ص17).

لقد ظهرت قضايا بيئية عديدة أدت إلى ضرورة وجود نظرة حديثة متكاملة للإنسان والبيئة وذلك لزيادة ضغوط الإنسان على البيئة، حيث ظهرت علوم البيئة Environmental Science إلى حيز الوجود. والتي تشمل مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية والاقتصادية المرتبطة في بيئة الإنسان.

3: مفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization

نكر في الدراسات الاجتماعية والإنسانية عدد كبير من التعريفات لهذا المفهوم، على الرغم من أنه مفهوم علمي حديث في الاستخدام السوسولوجي، فإنه لم يستخدم إلا في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي.

ويعرف القاموس الفرنسي (لاروس الصغير) المصطلح، بأن التنشئة هي العملية التي يستبطن من خلالها الطفل العناصر المتنوعة من البيئة الثقافية المحيطة به، ويندمج في الحياة الاجتماعية، وتوجد في معاجم علم الاجتماع إذ تعرفها "مادلين غرافيتز" بأنها "الضرورة التي يتم من خلالها اندماج الفرد في المجتمع من خلال استبطنه للقيم والمعايير والرموز، ومن خلال تعلمه للثقافة في مجملها بفضل الأسرة المدرسية وكذلك اللغة".

ويمكن إيراد تعريف جامع لمصطلح التنشئة وهو: عملية توجيه الكائن البشري الذي يولد عاجزا و جاهلا اجتماعيا، واكتسابه لثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وطرق السلوك والتفكير فيها حتى

ينمو؛ ليصبح فردا يقوم بدوره الفعال كعضو في جماعته (محمد لبيب النجيجي، 1978، ص147).

لقد اهتم علماء الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا بمفهوم التنشئة الاجتماعية كل وفق منظوره، وأطلقت عليه تسميات مختلفة كالتعلم الاجتماعي، والاندماج الاجتماعي، والتطبيع الاجتماعي، ولا تخرج هذه التسميات كلها في نظر "نيوكمب New Comb" عن كونها عمليات نمور وارتقاء اجتماعي يتطور خلالها الأداء السلوكي للفرد، وفقا لما يكتسبه من خبرات سارة أو مؤلمة خلال تفاعله مع المحيطين به في البيئة التي يعيش فيها، متأثرة بما تتميز به شخصيته من خصائص بيولوجية يختلف فيها عن غيره من الأفراد (فاطمة الكتاني، 2000، ص44).

ثالثا: منهج البحث:

يقصد بالمنهج؛ الطريقة المنظمة التي يتبعها الباحث خلال دراسة الحالة أو الموضوع الذي اختاره لدراسته. وهذه الطريقة تملي على الباحث إتباع جملة من المبادئ والقواعد التي تجعل التفسير الأنثروبولوجي للتمايز النوعي الاجتماعي/البيولوجي يتطابق ويتجاذب مع أساسيات الظاهرة الجندرية كعلم. وعلى هذا الأساس لا غيره أخذت الدراسة بالمنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي طبقا لمبادئ الانتوغرافيا الجديدة (عز الدين دياب، 2016، ص53).

ويتميز المنهج التاريخي Historical Method بأنه يلقي ضوءا أكثر حتى نتقهم طبيعة الظواهر من خلال دراسة ماضيها وإعادة تركيبها في بناء تاريخي متسق، وفي إطار ثقافي متكامل. ويهدف "المنهج التاريخي" إلى إعطاء وصف بانورامي لموضوع الدراسة. "إن التاريخ لا يعني فقط.. دراسة تتابع الظواهر والأحداث في الزمان، كما فهمه الوظيفيون، وإنما يهدف في النهاية إلى إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة" (حسين فهميم، 1986، ص178).

وقد عمدنا إلى استخدام هذا المنهج التاريخي لما يمنحه من معطيات ضرورية ومعارف إضافية من أجل تسليط الضوء في بناء معرفة أكبر لموضوع النوع على المستويين الاجتماعي والبيولوجي، وذلك عن طريق تتبع تاريخية الأساس الجندري وعمليات نمو الفهم الظاهراتي ومراتب التطور اللاحقة التي اصطحبتها بحيث جعلت من تلك المفاهيم وقائع حياتية للتعامل الوجودي. كذلك أضيفى هذا المنهج فهما أوسع لموضوع البحث من خلال استعراض أهم التظيريات المهمة في هذا المجال والاختلافات المصاحبة للفهم النظري اعتمادا على تاريخية النشوء الابستمولوجي للمنظرين الجندريين وأساليب التعلم المنهجي والتربية العلمية/الاخلاقية

الخاصة بهم. وكيف أدى الاختلاف النظري هذا إلى تحقيق تأثيرات أخرى فيما يتعلق بالوجود العملي للسلوكيات المتبعة من كلا الجنسين.

أما المنهج الاثنوغرافي Ethnographic method فهو يعمل على "تقديم وصف وتحليل الثقافة في إطار المفاهيم والتصورات التي لدى الأفراد ذاتهم وكما تتمثل في لغتهم. وبمعنى آخر، فلكي تتحقق الموضوعية في الدراسات الاثنوغرافية لا بد وأن يحجم الباحث الأجنبي عن إقحام مفاهيمه، واتجاهاته التحليلية، وأن يترك ذلك لأصحاب تلك الثقافة أنفسهم" (حسين فهيم، 1986، ص233).

وقد عرف أصحاب هذا المنهج في دراسة الثقافة الإنسانية باسم "علماء دراسة الشعوب Ethno Scientists" وأصبح هدفهم الرئيس هو الكشف عن تصورات شعب معين لنمط الحياة داخل مجتمعهم، وإيضاح الأسس العقلية والأصول الثقافية، التي يستندون إليها في تنظيم العلاقات الاجتماعية، ووضع قواعد السلوك، ونظم القيم.

وفي هذا البحث قصدنا استخدام المنهجية الاثنوغرافية لما لها من واقعية وصفية مبنية على واقعية تحليلية متخصصة، فلا يكفي -مثلا- لدراسة حالة أو ظاهرة معينة أن يكتفي الباحث بعملية الوصف التجزيئي المحض، إذ لا بد من إعطاء هذا الوصف معنى تجميعيا بنائيا ووظيفيا، ويجري ذلك من خلال التحليل الموضوعي للدراسة وموضوعاتها، وبناء الرؤية المعرفية السببية للعمليات الاثنوغرافية، والربط الأسلوبى المنهجي وفقا لمقتضيات الصيرورة العلمية، لكي يتم من خلال ذلك معرفة الدوافع الرئيسية والأهداف العامة لموضوع الدراسة.

وكما قلنا فإن المنهج الاثنوغرافي ليس منهجا وصفا خالصا وإنما هو نوع من "الوصف التخصصي Specialist Description" ونقصد بهذا المفهوم أن الوصف العادي هو عملية وصف ظاهراتية عيانية ليس فيها أي نوع من التخصص القائم على الربط التحليلي/السببي، بينما يمثل الوصف التخصصي أعمال المنهجية التتابعية في معرفة التناغم المتداعي للحالات أو الظواهر. وهذا في الحقيقة ما عملنا على توظيفه في هذا البحث من خلال الاعتماد على المنهج الاثنوغرافي للمدرسة الوصفية الجديدة في علم الإنسان.

المحور الثاني: الأسس النظرية للاختلاف النوعي

أسهمت عدد كبير من النظريات في تفسير الخصائص المميزة للاختلافات النوعية والقائمة وفق مبادئ ظاهرية وأخرى مستمدة من طبيعة الواقع البيولوجي. وقد تنوعت أساليب ومناهج

وأدوات البحث الخاصة في إضفاء حالات تفسير لما هو "منتج اجتماعي" وما هو "منتج طبيعي" وسوف نعمل -هنا- على استعراض مختصر لبيان تلك النظريات وبيابجاز.

1- النظريات البطريركية Patriarchal theory

تتخذ النظريات البطريركية أشكال متعددة وكذلك تدور حول أفكار مختلفة ولكن الفكرة الرئيسية أو الفرضية الأساسية التي تدور حولها هي: إن سيطرة الذكر أو التحيز للنوع لا يوجد كنتاج للنظام الرأسمالي لكنه منفصل عنها تماما، ولذلك يمكن أن يدوم بعد زوال الرأسمالية. وهذه الفرضية تحظى بقبول واسع ورفض الفكرة غير مقبول.

وتحظى النظريات البطريركية بفهم محدود لكيفية تغير أشكال قهر المرأة وطبيعة الأسرة عبر التاريخ ولا يوجد تصور لأشكال القهر الذي تواجهه المرأة من طبقة لأخرى، وإن ما تقدمه النظريات هو ما تعتقد أنه حقيقة مفادها أن البطريركية بكل أشكالها هي سبب قهر النساء. ويرجع ذلك إلى أن قهر المرأة يوجد في المجتمعات السابقة على الرأسمالية وأيضا في المجتمعات الاشتراكية (الهام عبد الرحمن عثمان، 2008، ص137).

ومن خلال كتابات "كيت وشولامي" ظهر مفهوم الأبوية الذي تجاوز التعريف الأصلي للأبوية وهو حكم الرجال كبار السن المهيمنين على البنية التقليدية من علاقات القرابة، أما المعنى الواسع فهو: قمع كل النساء من جانب كل الرجال من خلال الصورة المؤسسية.

وترى "كيت" إن الأبوية مؤسسة سياسية، والأبوية هي الشكل الأول للقمع البشري، وبدون القضاء عليه سوف تكون هناك أشكال أخرى للقمع كالقمع الاقتصادي أو العنصري.... الخ. وكذلك "شولامي" فإنها ترى إن قمع المرأة هو أقدم نظام طبقي طائفي في الوجود وأكثرها تعنتا ويسبق هذا القمع القائم على العرق أو الطبقة الاقتصادية لأنه يقوم على الفروق الطبيعية في التكوين التناسلي بين الجنسين والذي أدى إلى التقسيم الجنسي للعمل وإلى تكوين نظام طبقي يقوم على الفروق البيولوجية. ومن هنا فإن تحرير المرأة يتم من خلال النموذج الماركسي، ثورة طبقة النساء والسيطرة على التناسل (سارة جامبل، 2002، ص64-68).

2- مشروع نظرية اختلافات الذكر-أنثوية

لقد اهتمت هذه النظرية بالمواضيع الآتية:

- (أ) الاختلافات الجسمية للمرأة ووظائفها وانعكاساتها على سلوك المرأة الاجتماعي.
- (ب) ذاتية المرأة النفسية والاجتماعية وآثارها على أدائها السلوكي وعلى أحكامها ومعاييرها وإبداعاتها التي تميزها عن الرجل وتؤثر على بناء علاقاتها مع الآخرين.

(ج) طريقة عيش المرأة وحياتها منذ ميلادها وحتى شيخوختها وأدوارها وعلاقتها وخبرتها في الحياة التي تختلف عن خبرة الرجل، وكل هذه الاهتمامات تقوم على الجانب البيولوجي للمرأة وما يرتبط به من مناشط اجتماعية وخبرة تختلف عن الرجل في مجال الإنجاب والتنشئة لأطفالها وفي علاقتها بأبنائها إلى غير ذلك. ومن خلال هذه الاختلافات ظهرت تفاسير ثلاثة مختلفة تتحدث عن الاختلافات الذكر-أنثوية وهي:

أ. **التفسير البيولوجي Biological Explanation**: ويركز هذا التفسير على الاختلافات البيولوجية بين الذكر والأنثى، فلانثي أعضاء بيولوجية تميزها عن الرجل ولها وظائف مختلفة تعكس بالتالي الاختلافات في النواحي النفسية والاجتماعية لكل منهما، وهذه الاختلافات في الأعضاء ثابتة ولا تتغير، ومن أبرز العلماء الذين استخدموا هذه الاختلافات لدراسة وتحليل شخصية كل من المرأة والرجل هو العالم "سيغموند فرويد Sigmund Freud".

ب. **التفسير المؤسسي Institutional Explanation**: وهذا التفسير يُرجع نظام تقسيم العمل وارتباطه بأدوار معينة تقسم حسب الجنس في الأسرة كمؤسسة اجتماعية وهي أول مؤسسة ينشأ فيها الفرد.

ج. **التفسير النفسي الاجتماعي Social-Psychological Explanation**: وهو تفسير لإيقاع الحياة اليومية العادية فيالشارع وأماكن العمل والأسواق والمتاجر وما ينتج عنها من مناشط تستخدم في هذه الأماكن وتقوم على الاختلافات بين الجنسين في التعامل والتعايش (الهام عبد الرحمن عثمان، 2008، ص119-120).

3- النظرية النسوية Feminist Theory

قبل التعرف على النظرية النسوية ومشاريعها سوف نحاول التحدث عن بعض الكتابات النسوية والتي شكلت أرضية صلبة قامت عليها النظرية ولعل أول هذه الكتابات هو كتاب الجنس الثاني لـ "سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir" عام 1949م، إذ أن معالجة "دي بوفوار" لمفهوم المرأة كما تشكله الثقافة أرسدت دعائم معظم الأعمال النظرية التي ظهرت في السبعينات. ومن ضمن ما كتبه أن المرأة لا تولد امرأة بقدر ما أنها تصبح امرأة، فليس ثمة قدر بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي يقضي بتحديد شخصية المرأة كأنثى في المجتمع لكن الحضارة هي التي تصنع هذا المخلوق الذي يقف في موقع متوسط بين الذكر والخصي ويوصف بأنه مؤنث.

وتذكر "سيمون" أن فئة الآخر - أي الرجل - جوهريّة في صوغ الذات الإنسانيّة بكاملها، لأن إحساسنا بالذات يتكون إلا في مقابل شيء آخر غير الذات لكن الرجال يستولون على فئة الذات أو الفاعل ويجعلونها حكرا عليهم وينزلون المرأة منزلة الآخر إلى الأبد وبالتالي فالمرأة لا وجود لها حقيقة إلا من خلال إسقاطات خيال الذكر ومخاوفه.

وفي تحليلها للكيفية التي تصبح بها المرأة الآخر ذكرت "سيمون" أن تفسيرات علماء البيولوجيا والتحليل النفسي الفرويدي والماركسيين تفسيرات غير مقبولة، فعلم الأحياء يختزل الأمور في صورة وظائف الأعضاء، والتحليل النفسي يختزلها في صورة دوافع لا شعورية، والماركسية تختزلها في صورة اقتصاديات التبعية التي هي في الواقع منتج ثقافي-اجتماعي. ومن هذا يمكن للمرأة أن تتغير لو أدركت معنى الذات التي حرمت منها. كما ترى إن محصلة الذاتية الاقتصادية أدت بالرجل لإعطاء الفرصة للتحرر الاقتصادي الجزئي وعلى المرأة أن تنتهز الفرصة لتحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية الكاملة حتى تتحول داخليا وتصبح موجودة لذاتها (الهام عبد الرحمن عثمان، 2008، ص 115).

أن مدرسة التحليل النفسي وعلى رأسها "فرويد" يبقى مرجعا لا مناص منه. لقد اختزل العلاقة بين الرجل والمرأة في العلاقة الجنسية، كما جعل في الجنسانية محددًا أساسيًا لهوية الشخصية، منذ الطفولة المبكرة. ومن هذه الوجهة، بدت له هوية المرأة متأثرة بافتقارها للعضو الذكري، وهذا "النقص The Gap" يشكل - في نظره - نقطة انطلاق لتحليل الشخصية الأنثوية. ورؤية "فرويد" هذه دفعته إلى اعتبار أن المرأة تعاني - بالرجوع إلى طفولتها - من هذا "النقص"، إذ أن الطفلة الصغيرة تنقطن إلى الفراق الموجود بينها وبين الطفل، فتحس بأنها محرومة من شيء ما، وبأن ما أصابها هو إحاف كبير، وقد تصرح برغبتها في أن يكون لها شيء كهذا (Franco Eornari, 1980, p.124).

نقد التحليلات البرجوازية والماركسية:

لخصت عالمة الاجتماع الفرنسية الأنثوية "أندريه ميشيل André Michel" أبحاثها الميدانية بالقول: "لم تكن النساء مستغلة قط كما هي في الرأسمالية المتأخرة (أ. ميشيل، 1975، ص 21). في حين أن عبارة "علاقات الجنس البشري الأنثوي الاجتماعية" بدت مستمدة من المعجم الماركسي، والواقع أن ثمة عبارة "علاقات اجتماعية خاصة بالإنتاج"، وهي عنوان يقترح خلاله "ماركس" بأن يعاود النظر في العلاقات بين البشر وفقا لإنتاج السلع والبضائع، ولما كان مفهوم "العلاقات الاجتماعية للجنس" متأثرا بالتصور الماركسي للعالم، فقد بدا مفهوم "علاقات الجنس

الاجتماعية" يثير قراءة يحتل فيها "المجتمعي" مكانا محددًا مسبقًا (مجموعة باحثين، 2005، ص76-77).

إن كسب العيش ضروري من أجل استقلال المرأة نسبيًا عن الرجل وبالتالي فهو شرط لا غنى عنه لتحرير المرأة. غير أن هذا لا يعني -كما رأّت كلارا زيتكين- تغييرًا بسيطًا للمشهد: تحولت من عبدة للزوج إلى عبدة لرب العمل: بدلت السيد فقط. وإلى الآن لم يقد توسع عمل المرأة الاجتماعي بأي حال إلى جمعة حقل إعادة الإنتاج، كما ظن "أنجلز" وغيره من المنظرين الاشتراكيين (اورزولا شوي، 2006، ص21).

المحور الثالث: العنصرية وأصول الفوارق الجنسية

يتناول هذا المحور الفوارق الجنسية (النوعية) وفق الجوانب التأسيسية لها التي دُشنت اعتمادًا على مرجعيات مؤثرة في تحقيق هذه الفوارق، وهو جزء من استعراض تاريخي يبين على نحو واضح تلك الأسس التي جعلت الطابع النوعي/الجنسي أن يكون على ما هو عليه. كذلك سوف نقوم بمطارحة موضوعية حول الحقائق الملزمة للعنصرية الجنسية بعد التحديد التاريخي للواقع النوعي.

أولاً: أصول الفارق الجنسي

لقد تعرضت بعض جوانب القواعد البيولوجية لـ "اللامساواة الجنوسية" لانتقاد متزايد في القرن العشرين، فقد أولى النسويون اهتمامًا متجددًا بالطريقة التي تم التنظير بها للحياة العقلية والعاطفية للنساء. ففي الخمس وعشرين سنة الأخيرة تركز السجال بين المنظرين النسويين حول أصول الأنوثة وبشكل أعم حول معنى الحياة العقلية، على ما إذا كان علم التحليل النفسي الحديث بشكل متميز قد ساعد أو أعاق فهم الجنس والجنوسة.

فمنذ أواخر الستينات (1960م) -السنوات الأولى من الموجة الثانية من حركة النساء- شن نسويون أمريكيون أمثال "كيت ميليت Kate Millet" حملة هجومية على رؤية "فرويد" للأنوثة. إن هجوم "ميليت" البارع في كتابها السياسة الجنسية (1970م) يجعل التحليل النفسي الفرويدي كبش الفداء لأجل الكره العام للنساء في الثقافة السائدة. وثمة كتاب نسويون آخرون، يتبعون "ميليت"، كانوا يعتقدون أن "فرويد" مسؤول عن الاستعمال المعير والمحافظ الذي طبقت به نظرياته من قبل كل من المعالجين والمحللين الثقافيين. إن سوء استخدام المحلل للسلطة في علاقة المريض -المحلل، عندما كان الرجال هم المحللون (بكسر اللام) والنساء هن المحللات (بفتح اللام) قد اعتبر أنه يمثل نموذجًا للعلاقات البطريركية .. "أسوأ ما في الأمر، أن التحليل النفسي قد صوّر

بوصفه نظرية تستمد افتراضات كونية من أدلة الثقافات المحلية جدا والمحددة تاريخيا، مثبتة الجنوسة عن طريق الإيحاء بأن البنى النفسية هي بشكل ما خارج أو منبوعة على التأثير الثقافي وبذلك تنكر إمكانية التغيير التاريخي" (ديفيد غلوفر، 2008، ص 69-70).

تقول "سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir": أن السبب العميق الذي حصر المرأة في العمل المنزلي في بداية التاريخ ومنعها من المساهمة في تعميم العالم هو استبعادها لوظيفة التنازل. وتقول عن دور التنشئة في خلق وضع المرأة "لا يولد المرء امرأة بل يصير كذلك"، أي "إن سلوك المرأة لا تفرضه عليها هرموناتها ولا تكوين دماغها بل هو نتيجة لوضعها" (معن خليل عمر، 2015، ص 21). هذا ما لخصته "سيمون دي بوفوار" منذ عام 1949م، في كتابها الشهير "الجنس الآخر The Second Sex"، عندما أطلقت تلك المقولة الشهيرة وهي مقولة تكررت بعدها كثيرا، بما في ذلك عربيا: "الذكورية ليست طبيعية أو مُعطى بل هي بناء اجتماعي مثلها مثل الأنوثة" (مي غصوب وايماسنكلير ويب، 2002، ص 129).

والمشكلة الحقيقية ليست في الاختلاف بين الجنسين، ولكن الاعتقاد أن قدرات المرأة أقل من قدرات الرجل في مختلف النواحي، وهو الاعتقاد الذي كان سببا في تدني مكانة المرأة وهذا التمييز بين الرجل والمرأة هو ما يسمى النوع الاجتماعي.

وترجع تدني مكانة المرأة إلى سيطرة الرجال في البدايات الأولى عندما كان البشر يعيشون على الصيد والقتل والالتقاط وهي مهام تحتاج لقوة فيزيقية وقد تولى الرجال مهمة الصيد والدفاع عن الجماعة، أما النساء فقد ارتبطن بالمنزل نتيجة ظروفهن البيولوجية من حمل ورضاعة الأطفال ورعايتهم بجانب الأعباء المنزلية والتي تتمثل في جلب الماء والطعام وإعداده وتنظيف الملابس وهي كلها أعمال هامة وضرورية إلا أنها تحتل مكانة أدنى من الأنشطة التي يمارسها الرجال (Barnouw, Victor, 1988, p. 126).

إن "هذا التحكم أو التصرف هو الذي جعل من العامل البيولوجي -عبر الزمن- بعدا جنسيا محددًا لهوية المرأة، ولهوية الرجل أيضا. ولقد رأى عالم الاجتماع البريطاني غدنز أن الجنسانية ليست أمرا مقدرا، منذ اللحظة التي تتكون فيها قبل تسعة أشهر من ولادتنا، بل إنها أمرا نسهم نحن في صنعه وتتميته، خلال حياتنا اليومية، عبر تفاعلنا الاجتماعي مع الآخرين" (انتوني غدنز، 2005، ص 185).

وعلى ذلك، فإن الفروق الجنسية في السلوك تظهر مبكرا قبل أن يستطيع أي طفل أن يدرك الاختلافات الواضحة بين والديه أو أن يعرف أيًا من الأبوين عليه أن يقلده. وكما يقرر "جيروم كاجان Jerome Kagan" عالم النفس بجامعة هارفارد "أن من الاستراتيجيات المفيدة افتراض

أنه كلما كان الفرق بين الجنسين مبكراً في الظهور، زادت فرصة أن يكون متأثراً بعوامل بيولوجية" (إيفلين آشتون، جونز جاري، أ. اولسون، 2006، ص36). وبالإضافة إلى فصل الجنس عن الجنوسة تحليلياً، ميز "روبرت ستولر Robert Stoller" بين "الدور الجنوسي" و"الهوية الجنوسية" لكي يشير إلى أن حياة المرء الجوانية وحياته البرانية قد تكونان متناقضتين بعمق أو تقشلان في الالتقاء. إن الدور الجنوسي الذي يتظاهر به المرء أمام الآخرين يمكن أن يقدم دليلاً واهياً على من يشعر نفسه أنه يكونه، وبالتالي فإن التعريف الدقيق للهوية الجنوسية في نظرية "ستولر" يقوم على إمكانية الشقاق الجواني، نوع من اللاتماهي مع كينونة المرء الجنسية.

إذ تبدأ الهوية الجنوسية بالمعرفة والإدراك سواء الواعي أو اللاواعي، أن المرء ينتمي إلى جنس واحد وليس إلى الآخر، مع أنه عندما يتطور المرء، تصبح الهوية الجنوسية أعقد بكثير، بحيث أنه، على سبيل المثال، قد يحس المرء نفسه ليس كذكر فقط بل كإنسان مذكر أو رجل متأنف أو حتى كرجل يتوهم أنه امرأة.

إن جزءاً من السبب في هذا الاحساس بالانقطاع الدلالي ينبع من حقيقة أن الجنسانية، بدءاً من القرن التاسع عشر، قد اتخذت تدريجياً منزلة جديدة كموضوع للمعرفة العلمية والشعبية. حيث شهدت المائتا عام الأخيرة أو أكثر ما وصفه الناقد والمؤرخ "ميشيل فوكو" Michel Foucault ذات مرة بأنه انفجار استطرادي حول مسألة الجنس، ولم يكن يعني به ببساطة أنه بات يحكي عنه بشكل أوسع أو أغلب أو أكثر صراحة، مرخية قبضة التقاليد الكتابية أو التابوهات المحرمات.

ثانياً: العنصرية الجنسية

إن العنصرية الجنسية هي المرادف للعنصرية العرقية. حيث أن العنصرية العرقية تشير إلى أن الاختلافات الفطرية بين الأعراق والسلالات تجعل أناساً وأعرافاً متفوقين على أناس وأعراف أخرى، وبالتالي تبرر سوء معاملة وانتهاك حقوق العرق "الأدنى"، فالعنصرية الجنسية تعني أن معاملة الاختلافات البيولوجية بين الرجال والنساء تجعل أحد الجنسين دائماً وهم الرجال، متفوقين على النساء وبالتالي تبرر التمييز وسوء المعاملة للجنس "الأدنى". وعلى ذلك فإن العنصرية الجنسية هي طراز من الكراهية، والحط من قيمة مجموعة كاملة من الناس على أساس جنسهم فقط (إيفلين آشتون، جونز جاري، 2006، ص29).

وهكذا، فالبشرية ذكر، والرجل يعرف المرأة ليست ذاتها ولكنها منسوبة إليه، فهي لا تعتبر مخلوقاً له حرية ذاتية. لقد كتب "ميشيل رينيه Michael Rennie" يقول: "المرأة، كائن نسبي"

و"راسل" كان إيجابيا جدا في قوله جسم الرجل له معنى في ذاته خلافا لجسم المرأة، حيث أن الأخير تنقصه أشياء مهمة في التكوين (إيفلين اشتون، جونز جاري، 2006، ص178).

إن الاختلاف الجنسي لا يختلف عن التعصب العرقي - الرسي لأن الجنس يجعل من أدوار النوع الاجتماعي تبدو شيئا طبيعيا وعاديا لا يراها الجميع على أنها غريبة أو شاذة أو مرضية وبالذات عندما تكون متجذرة في الأنساق المتفاعلة في نفوذها ومفاضلاتها وامتيازاتها. هذا الشعور الجنسي - في الواقع - راسخ في المعتقد والمؤسسات الاجتماعية (معن خليل عمر، 2015، ص162).

وغالبا ما يشير الأفراد في أثناء حديثهم عن الرجال أو النساء إلى أنهم الجنس الآخر (Opposite Sex)*. إن مصطلح "الجنس الآخر" يتضمن أن الرجال والسيدات ينتمون إلى مجموعتين منفصلتين تماما. هل الرجل والمرأة مختلفان بحق؟ في الواقع، إن الأفراد الذكور والإناث يشتركون في العديد من الخصائص، لاسيما الخصائص البيولوجية. فعلى سبيل المثال، كل منهما على نحو طبيعي لديه ثلاثة وعشرون زوجا من الكروموسومات Chromosome، وكلاهما من ذوات الدم الحار Warm - Blooded إلا أن أجساد الذكور وأجساد الإناث تختلف في بعض الأشياء الأخرى. وهذه الخصائص المميزة التي تشمل الاختلافات الكروموسومية، والبناءات الجنسية الداخلية والخارجية، والإنتاج الهرموني، والاختلافات الفسيولوجية الأخرى، والخصائص الجنسية الثانوية إنما تدل على "الجنس" (إيمي. اس وارتن، 2014، ص25).

فعلى سبيل المثال بينما اكتشف العلماء المتخصصون في العلوم العصبية neuroscientists أن هناك بعض الاختلافات بين عقول الرجال والنساء، إلا أنهم لم يستطيعوا ربط هذه الاختلافات باختلاف الجنس في الذكاء، أو التفوق بالنسبة للمستوى العلمي المتقدم، أو الإنجاز في علم الرياضيات. ويزعم البعض أنه من أجل فهم تراجع مستوى المرأة في مجالات العلوم والتكنولوجيا، فإنه يجب ألا نركز على القدرات في مجال الرياضيات في حد ذاته، بل الأفضل مقارنة أعداد الرجال والنساء عند النهاية القصوى للتوزيع. (Hyde, J.S. and Mertz, J.E., 2008, p.114)، بينما توصلت الدراسات إلى اختلاف في التفوق في مجال الرياضيات بالنسبة للرجال مع وجود ذكور متفوقين وغير متفوقين في هذا المجال، فإن هذا الاختلاف لا يمكن أن يفسر النسب المنخفضة للمرأة في مجالات العلم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات. إن التفوق في مجال الرياضيات يمكن أن نربطه بالقدرة المكانية Spatial ability، وأن العديد الذين درسوا الأسس

* وقد تترجم بمصطلح الـ second sex.

البيولوجية لتراجع مستوى أداء المرأة في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة و الرياضيات ركزوا على هذه المجموعة من المهارات (إيمي.اس وارتنون، 2014، ص85-86).

ولقد ركزت بعض البحوث الحديثة اهتمامها على كيفية تأثير الاختلاف النوعي بالدلالات اللغوية، ولقد تناول لاكوف Lakoff المصطلحات المتعلقة بالجنس في اللغة والتي يمكن أن تؤثر على الأبنية والاتجاهات المعرفية نحو النوع الاجتماعي، فحينما نجد مصطلح الجنس الدال على طبقة أو فئة تجمع بين الجنسين يكون المصطلح مذكرا، وخير مثال على ذلك أن استخدام مصطلح رجل في اللغة الإنجليزية Man للإشارة إلى الجنس البشري كله، بينما يقتصر مصطلح المرأة woman للإشارة للنساء فقط، وفي اللغة العربية فإن جمع الإناث إذا اختلط به الذكور ولو واحد فقط يعامل معاملة الجمع المذكر السالم، وبالنسبة للمثلي Homosexual المكون من ذكر وأنثى يتخذ صفة المثلي المذكر، وكما يتضح لنا فإن اللغة قد تعكس وتدعم اتجاهات سيطرة الذكور وتفوقهم على الإناث (شارلوت سيمور -سميث، 1998، ص722-723).

إن ما تسمى طبيعة "أنثوية" و"ذكورية" كانت وما تزال تخدم لإضفاء الشرعية على استمرار سيادة الرجال على النساء وتتخذ ذريعة لتوزيع العمل تبعاً للجنس (اورزو لاشوي، 2006، ص13).

المحور الرابع: النوع ودوافع البيئة والتنشئة الاجتماعية

لا يخفى ما للبيئة والتنشئة الاجتماعية من أثر كبير في تربية النوع وتحديد سلوكه وتصرفاته وفقا للضابطة الاجتماعية العامة على نحو بنيوي/تركيبى. الأمر الذي يجعل من الممارسة النوعية (عادة) يألّفها كل نوع، ونقصد بالممارسة النوعية هو المدى العام للسلوك والمحدد اجتماعيا أو عرفيا على أنه سلوك خاص نوعي وممارسة نوعية عامة. ومعنى ذلك أن السلوك النوعي الخاص يتحدد بذات النوع، ذكرا كان أو أنثى، وأن الممارسة النوعية العامة تعني أن هذه الأفعال عامة داخل النوع الواحد المحدد.

أولاً: النوع والتبنيؤ

هل تختلف النساء عن الرجال؟ يثير هذا التساؤل تناقضا مهما، فقد تفضل الطبيعة المرأة.. ولكن كل المجتمعات تتحاز إلى الرجل. المحررات المناحازات للمرأة يعتقدن أن أية اختلافات - بخلاف تلك الاختلافات التشريحية- إنما هي نتاج لحدوث التكيف بواسطة المجتمع، بينما يرى الرجال المعارضون أن الاختلافات تملئها الجينات الموجودة في خلية كل منها. أما العلماء فيرون أن الإنسان سواء المرأة أو الرجل هو نتيجة تفاعل معقد بين القوتين: البيئة والوراثة (إيفلين اشتون، جونز جاري، 2006، ص27).

نحن لا نولد بنات (أو صبيانا) إنما يجعلون منا هكذا! ماذا يعني هذا؟ إنه يعني؛ أن الأطفال يدفعون اعتبارا من يومهم الأول بصورة منتظمة إلى دور جنساني ويمسحون إلى كائن نسميه "أنثى" أو "ذكر". هذه الصيرورة تحجم الاثنتين، إلا أن البنات تعد أكثر من الصبي في إمكاناتها الكامنة، تنتقص في استقلاليتها، وتظلم على صعيد الواقع. إن الخصائص الأنثوية، التي كانت تعتبر أصيلة مثل عاطفة الأمومة والعاطفية والاهتمام الاجتماعي والسلبية، ليست أنثوية بالطبيعة ولا فطرية بل مكتسبة ثقافيا. كيف يحدث هذا عبر تأثيرات مباشرة وغير مباشرة في الأيام والشهور والسنوات الأولى من الحياة؟ هذا ما يمكن تبينه اليوم وبدقة علمية وفي كل مرحلة من مراحل التطور (اورزو لاشوي، 2006، ص7).

ويقرر "فرانك بيتش Frank Bitch" من جامعة بيركلي أن "الاستعدادات قد تكون وراثية، أما الأطر السلوكية المعقدة فمن الأرجح أنها ليست كذلك" (إيفلين اشتون، جونز جاري، 2006، ص35). فإن ما يعتبر في مجتمع ما أو ثقافة ما أدوارا إنسانية ورجالية قد يكون العكس في مجتمع آخر وثقافة أخرى. كما أن هذه الأدوار قد تتغير في نفس المجتمع حسب السن والأجيال أو الطبقة الاجتماعية أو الوضع الاجتماعي (بلقيس بدري، 2003، ص25).

لقد أفسح علم اجتماع المرأة مجالا لعلم اجتماع النوع، فعلى المستوى الأول، انعكس هذا التغير في نمو التراث حول الرجال والذكورة. وعلى الرغم من اهتمام علماء الاجتماع بالرجل لسنوات طويلة، فإن التراث الحديث كان يركز على الرجل من خلال الاهتمام بالنوع بدلا من الاهتمام به من الناحية الجنسية. ولقد صاحب هذا التطور بدوره الاعتراف بأن النوع ذاته ذو طبيعة تبادلية relational أي إن فهم طبيعة المرأة يتطلب جذب الانتباه إلى فهم طبيعة الرجل (إيمي. اس. وارتن، 2014، ص19).

إن إحدى النقاط المهمة التي طرحها "كونيل" هي الأنواع المتعددة للرجولة، ومنها السيطرة الرجولية hegemonic masculinity. لقد حدد "كونيل" هذا المفهوم على أنه شكل من أشكال الممارسة الجندرية التي تدعم وتعزز موقع الرجل المسيطر على موقع المرأة التابع له. واستخدم "كونيل" -في الواقع- هذا التحديد استعارة من تحديد وتعريف "جرامسي" (عالم اجتماع ألماني معاصر) أي أن مصطلح السيطرة ونفوذها لم يكن تحديده من قبل "كونيل" موضحا بذلك ممارسة جماعة واحدة سيطرتها عبر الممارسات الثقافية أكثر من وساطة العنف والقوة. بمعنى أن "كونيل" و"جرامسي" يريان سيطرة الرجل على المرأة متأتية من المعايير الثقافية التي تدعو إلى ذلك أكثر من استخدام القوة الجسدية التي يتمتع بها الرجل على المرأة (معن خليل عمر، 2015، ص51).

إن فبالرغم من أن علم النفس التجريبي Experimental psychology برهن على أن الكثير من الخصائص سببها المجتمع، فما تزال إلى الآن النواة التي تتكون منها الطبيعة "الأنثوية" و"الذكورية" غير محسوسة: العاطفية الزائدة لدى النساء، سلوكهن الأكثر اجتماعية واهتمامهن الزائد بالأشخاص وتدني قدرتهن الجسدية. هذه الفروق الطبيعية هي التي تحتوي على التبعات الحاسمة، هذا يعني أنها تؤخذ لتبرير خص النساء بتربية الأطفال وتدبير المنزل والأعمال النسائية الصحيحة (اورزو لاشوي، 2006، ص15).

ثانياً: التنشئة الاجتماعية والطابع النوعي

إن التنشئة الاجتماعية بمثابة العملية التي من خلالها يصبح لدى الأفراد طابع النوع become gendered. فهم يتعلمون ما هو متوقع منهم إما إناث أو ذكور وكيف تظهر هذه الخصائص. ومن المهم فهم عملية التنشئة الاجتماعية Socialization لأن معظم علماء الاجتماع ينظرون إلى تمايزات النوع على أنها ذات نشأة اجتماعية أكثر من النشأة البيولوجية (إيمي. اس، وارتون، 2014، ص94-95).

إلا أن تحديد السمات الشخصية التي تميز كل من الرجال والنساء غالباً ما يكون تبعاً للأنشطة التي يمارسونها في المجتمع، حيث إن أدوار النوع الاجتماعي تنعكس على السمات المميزة لكل من الذكور والإناث وهذه السمات -وخاصة السلوكية- تعتمد أكثر على احتياجات الشخص وأنشطته الاجتماعية أكثر من اعتمادها على الاختلاف البيولوجي بين الجنسين. وفي دراسة قام بها الباحثان (موني وأنك Ank&Money) لطفلين توأم متطابقين Identical Twins من الذكور أحدهما تعرض لحادثٍ مأساوي حيث فقد عضو الذكورة أثناء إجراء عملية الختان الجراحية، وبعد فترة من المعاناة أقتنع الوالدان بتنشئة هذا الطفل كأنثي وتم عمل مهبل vagina جراحياً، وإن كان لا يقوم بوظيفته البيولوجية، وقد عامله والداه كفتاةٍ صغيرة، فالأم أطالت لها شعرها وزينتها بالشرائط والحلي، وألبستها ملابس مزخرفة، حتى أصبحت الفتاة الصغيرة تسلك التصرفات المتوقعة من الفتيات الصغيرات، فهي أكثر أناقة من أخيها واهتماماً بمظهرها، وتفضل اللعب بالعروس وألعاب البنات، وهي أكثر هدوءاً من أخيها، وتتعاون في الأعمال المنزلية، ورغم أنها ذكر بيولوجياً فهي تتصرف كأنثي (Moore, C. Camella and Mathews. F., 2001, p.75).

وتحاول النظريات الثلاثة الأساسية للتنشئة الاجتماعية (التعلم الاجتماعي، والمدخل المعرفي، ونظريات التوحد) تفسير كيفية قيام الأفراد باكتساب الخصائص التي يراها المجتمع ملائمة للذكور أو الإناث (إيمي. اس. وارتون، 2014، ص95).

فالناس كائنات اجتماعية، بيولوجيا، إذ هم اليوم -بالدرجة الأولى- ذرية لتعيين هويتهم الجنسية. فالناس المؤنثون بيولوجيا يربون كنساء، والناس المذكرون بيولوجيا يربون كرجال. هذا في المجتمع البطريركي. بالمقابل؛ في المجتمع المتريركي، اتخذت النساء لأنفسهن دورا يعتبر ذكريا، وأعطين للرجال الدور الأنثوي، حينذاك كان الرجال سلبيين، عاطفيين، مغناجين ومسؤولين عن البيت والأطفال. أما النساء فكن فاعلات عدوانيات، ومسؤولات عن القتال. فما تعتبره اليوم دورا ذكريا، هو دور الجنس المسيطر، وما تعتبره دورا أنثويا، هو دور الجنس المضطهد (اورزولا لاشوي، 2006، ص8).

ومما له دلالة؛ أن جميع القدرات الأنثوية المميزة في أوائل السنوات الأولى من العمر - أي القدرات التي يجري تشجيعها لدى البنات الصغيرات - تخدم بصورة مباشرة تخفيف عبء العمل عن الكبار. وهكذا تصبح البنات نظيفات أبكر من الصبيان، يلبسن ثيابهن لوحدهن أبكر، يدفعن منذ سن الروضة لخدمة الآباء والأخوة. إن عمل البنات يأخذ حجما أكبر بكثير مما كان يظن حتى الآن. وهذا الموضوع لوحده يستحق دراسة متعمقة.

وعلم النفس الذي يعتبر نفسه "تقدما" و"اشتراكيا"، اكتفى هو الآخر حتى الآن بتحديد الفروق المتواجدة فعلا بين البنات والصبيان بعد الشهور الأولى من الولادة... من ثم يجري ببساطة إعلان هذه الفروق سببا لـ "الأنوثة" و "الذكورة" بدلا من فهمها كنتيجة للتربية والتوجيه المختلفين باختلاف الجنس.

والآن ما هو فطري في هذه الخصائص "الأنثوية"؟ لقد أثبت علم النفس التجريبي أن أكثر هذه الخصائص مثلا: أقل عدوانية، أقل اهتماما بالأشياء التقنية، أكثر سلبية، أقل استقلالا، أقل إبداعا، أقل طموحا الخ، سببها اجتماعي. كما بين عبر أية أليات تنتج هذه الخصائص في عملية الجمعنة (اورزولا شوي، 2006، ص10-11).

المحور الخامس: الجنسية البيولوجية

يؤكد هذا المبدأ على أن الجنس -نوع- يحدد علائقيا وسلوكيا اعتمادا على المحددات البيولوجية، وهذا التأثير البيولوجي هو ذو طابع نسبي وليس واقعية كلية في المحدد النوعي. إذ التأثيرات والواقعات البيولوجية هي الأكثر احتمالا وتغيرا في التصنيف الجنساني من الواقعات والمحددات الاجتماعية أو الحضارية. ولكن مهما يكن من أمر فإن ثمة تبادلية في التأثير لا يمكن إهمالها بل هي الأساس الصحيح في كل معالجة من هذا النوع.

فالجنس يمثل حقيقة بيولوجية وهو المفتاح الرئيسي للاختلاف بين الرجل والمرأة حيث للمرأة قابلية الإنجاب بينما يمتلك الرجل قوة جسدية وميولا عدوانية، علما بأن معظم المجتمعات تضع تركيزا كبيرا على القوة الجسدية للرجل.

وإذ كان الكتاب لعدة قرون يفترضون الاختلافات البيولوجية القائمة بين الرجل والمرأة هي المسؤولة عن حقيقة كون الرجل متسيدا في المجتمع وأن المرأة سجينه وظيفتها التناسلية - الإنجابية (هذا الافتراض ما زال سائدا بين العديد من الثقافات الاجتماعية في الوقت الراهن ذلك بسبب كون المرأة تقوم بولادة الأطفال وإزاء ذلك عليها أن تكون مسؤولة عن تربيتهم، وهذا بدوره يعيق ممارسة أدوار فعالة تستطيع أخذها وأداها في المجتمع) إلا أن قيامها بالإنجاب وتربية ما تنجبه لا يدعها تأخذ أدوارا رياضية وقيادية ومؤثرة في المجتمع (معن خليل عمر، 2015، ص31). وعلى الرغم من أن "ماكجنلي Felice McGinley" تشير إلى أن تركيب المخ يحدد السلوك، فإن عالمة أخرى تعتقد أن العكس قد يكون صحيحا. فالعالمة "آن بيترسن Ann Pertsen" من جامعة شيكاغو، ترى أن التجارب يمكن أن "تتكّر" أو "تؤنّث" المخ. ففي دراسة حديثة وجدت "بيترسن" أن الأولاد الذين يتميزون في الألعاب الرياضية يتميزون أيضا في التفكير الفراغي، وهي مهارة يحكمها النصف الأيمن من القشرة المخية.

وكما تقول "بيترسن": "النساء أقل بكثير من الرجال في مجال الرياضة"، وأقل تأقلا على الإدراك الفراغي. ومن المرجح أن يكون جزء من المشكلة يرجع إلى عدم استعدادهم للاشتراك في الرياضة، أو أن بعض النساء ربما لم يطورن على الإطلاق المساحة من المخ المتخصصة في التحكم الفراغي (إيفلين اشتون، جونزجاري، 2006، ص48).

ويعترض الفكر النسوي تماما على اعتبار الاختلاف البيولوجي عائقا فكريا أو إبداعيا في حياة النساء مقارنة بالرجال، حيث يتم التأكيد على دور المجتمعات في تقليص فرص النساء على مدار التاريخ الإنساني، وتحديد أدوارهن في الأعمال المنزلية. وفي هذا السياق أشير إلى النموذج الذي ساقته "فرجينيا وولف Virginia Woolf" في كتابها "غرفة خاصة بها" حيث قارنت بين الفرص التي أتاحت لـ "شكسبير Shakespeare" لينتفع للكتابة والإبداع في الوقت الذي ربما لو افترضنا أن له أختا تتمتع بالقدر نفسه من الموهبة والعبقرية لما أتاحت لها إمكانية تعلم القراءة والكتابة ثم التفرغ للكتابة في مجتمع يتقل النساء بالمهام المنزلية على حساب تطوير إمكاناتهن وقدراتهن الأخرى، فالعائق الحقيقي هو حبس النساء في أدوارهن التقليدية التي يحددها المجتمع (Virginia Woolf, 1989, pp.46-49).

ولا شك أن للذكر كما للأنثى خاصيات بيولوجية متميزة تجعل الواحد منهما مختلفا عن الثاني، فهذا أمر بديهي. إلا أن الاعتراف بهوية أنثوية أو ذكورية غالبا ما يتم اخراجه من بديهيات البيولوجي، في اتجاه توظيفه اجتماعيا وسياسيا وثقافيا وإيديولوجيا. هذا هو الذي جعل العامل البيولوجي مرتبطا بتاريخ المجتمعات والثقافات، وخاصة بعلاقات القوة والسيطرة فيها، إذ لكل مجتمع آلياته الخاصة في التعامل مع الفوارق البيولوجية وتكييفها أو "تطبيعها"، ضمن صيرورة يتعلم فيها الفرد ما معنى أن يكون رجلا أو امرأة، أي أن يكتسب فيها هوية الذكورة أو الأنوثة (غيداء ظاهر، 2011، ص20).

إلا أن هناك اختلافا على غير سعيد. ذلك أن بعض هذه الفروق ينتج من السمات الفطرية، وبعضها الآخر ينشأ عن السمات الفيزيولوجية، وثمة بعضها الآخر يعبر عن البعد الاجتماعي-الثقافي الأكبر. ولقد بدا أن النساء المعاصرات جعلن يركزن على هذه الخاصية الأخيرة، فأسهمن بذلك في إنشاء ثنائية جديدة بين ظاهر الجسمانية المعينة من الوجهة البيولوجية، وبين نوع الجنس الذي يحدده من الوجهة الاجتماعية (مجموعة باحثين، 2005، ص106-107).

المحور السادس: مبدأ تقسيم العمل بين الجنسين

يعد مبدأ تقسيم العمل Division of labor أحد الخصائص المميزة بين الجنسين الذكر والأنثى في كل المجتمعات الحاضرة منها والماضية. ويقوم هذا المبدأ على مسألة توزيع المهام والوظائف على نحو حقيقي واعتباري، حيث يناط العمل الحقيقي بالمهام التي تتطلب جهدا عمليا واستثنائيا، ويتضمن العمل الاعتباري بالوظيفة المعنوية التي تقع على عاتق كل منهما وهو عمل يتعلق بالأوضاع العرفية والتقاليدية أكثر منها بالعمل الجهدى.

الطابع الخاص لتقسيم العمل بين الجنسين:

"بنظرة متحصصة نجد أن مفهوم تقسيم العمل بين الجنسين غير كافٍ للتعبير عن الطرف الذي يتواجد فيه الرجل والمرأة بالنسبة لعملهما، وهو يحجب الحقيقة، حيث أن الأمر لا يتعلق بتقسيم متساوٍ للعمل (كما هو الحال ما بين السكاف والنجار مثلا)، بل يتعلق بتوزيع وظيفي متضمن لعلاقة سلطوية معينة. إن تقسيم العمل بين الجنسين هو تقسيم خاص من نوعه، من حيث أنه يفترض وجود علاقة سلطوية اجتماعية معينة بين المرأة والرجل. وطالما بقي هذا النمط من تقسيم العمل قائما، فإنه سيعيد إنتاج هذه العلاقة السلطوية دائما من جديد".

تقول "رناته شتيفان": "إن تقسيم العمل بين المرأة والرجل في مجتمعنا، أو بالأحرى الجمعنة باتجاه تقسيم العمل جنسانيا تقود إلى انتقاص فيزيائي للإنسان، إلى إنسان مؤنث وإنسان مذكر

منفصل عنه بحدود واضحة. المهم أن الانتقاص المعني لكلا الجنسين ذو تبعات مختلفة تمام الاختلاف بل ومتعاكسة بالنسبة للمرأة والرجل" (اورزولا شوي، 2006، ص22).

وإذا كان التقسيم الجنساني للعمل بين النساء والرجال سببا لعدم تساوي منزلة الجنسين، عندئذ يلح علينا السؤال عن سبب هذا التقسيم للعمل؟ هناك ثلاثة منطلقات نظرية أساسية لتفسير تقسيم العمل الجنساني وبالتالي لتفسير الفرق بين النساء والرجال:

1- المنطلق البيولوجي: يستند هذا المنطلق إلى الفرضية بأن فروقا طبيعية-بيولوجية بين

النساء والرجال هي سبب الفروق بين الجنسين وبالتالي سبب تقسيم العمل الجنساني.

2- الانطلاق من المشروطة الاجتماعية مع الاعتراف بوجود "فرق طبيعي" ضئيل: يستند هذا

المنطلق إلى الافتراض بأن الفروق بين النساء والرجال، كما نجدها اليوم، هي بصورة أساسية نتيجة علاقات اجتماعية معينة. هذا يعني أن الفروق بين النساء والرجال لا تشتق كليا من العلاقات الاجتماعية المعنية وأن فرقا صغيرا بين النساء والرجال سيبقى موجودا على الدوام: ليس النساء أدنى من الرجال، بل من نوعٍ مغاير.

3- الانطلاق من المشروطة الاجتماعية الكلية: هذا المنطلق يرفض القسمة البيولوجية للجنسين

(باستثناء ما ذكر من وظيفة الحمل والولادة)، ويعيد الفروق بين الجنسين كليا إلى العلاقات الاجتماعية المعنية (اورزولا شوي، 2006، ص24-25).

التقسيم الطبيعي للعمل لدى المنظرين الاشتراكيين:

كيف يتجلى التقسيم الطبيعي للعمل بين الجنسين في المجتمع البدائي؟ وأي الفروق البيولوجية بين النساء والرجال هي السبب في نظر الكلاسيكيين والأنبياء الاشتراكيين لمسألة المرأة؟

يقول "إنجلز": "وتقسيم العمل عفوي صرف: يتواجد بين الجنسين فحسب. الرجل يقوم بالحرب، يمضي إلى الصيد البري وصيد الأسماك، ويستحصل على المادة الأولية للغذاء والأدوات الضرورية لذلك. والمرأة تهتم بالبيت وبتهيئة الطعام واللباس، تطبخ، تحيك وتخيظ. وكل واحد منهما سيّد في ميدانيه: الرجل في الغاب، والمرأة في البيت. كل منهما مالك للأدوات التي يصنعها ويستعملها: الرجل للأسلحة وأدوات الصيد، والمرأة مالكة لمتاع البيت، الاقتصاد البيئي شيوعي (اورزولا شوي، 2006، ص21).

وكسب المعيشة كان دائما شأنًا من شؤون الرجل، هو الذي يصنع الوسائل اللازمة لذلك وهو مالكها. إذا كان تقسيم العمل هذا عفويا، وبالتالي غير مرهون بالمجتمع، عندئذ يجب أن يكون ناجما عن كفاءة مبررة بيولوجيا لدى الرجل بالنسبة للميدان "الخارجي". فما هي القدرات

والخصائص المبررة بيولوجيا والتي رآها المنظرون الاشتراكيون تؤهل النساء أقل من الرجال للكسب البراني وأكثر منهم للعمل الحواني؟

بهذا الصدد يقول "أوغست بيل August Bell": "عموما كانت في الزمن البدائي الفروق الفيزيائية والعقلية بين الرجل والمرأة أقل بكثير مما هي في مجتمعنا. لدى جميع المتوحشين تقريبا وجميع الشعوب في مرحلة البربرية.. كانت الفروق في وزن وفي حجم الدماغ أقل مما لدى شعوب الحضارة. كذلك بالكاد كانت القوة واللياقة البدنية لدى نساء هذه الأقوام متخلفة عما لدى الرجال". ويرى "بيل" أيضا: "من ناحية أخرى، المرأة بطبيعتها أكثر اندفاعا من الرجل، أقل تبصرا، أكثر نكرانا للذات، أكثر سذاجة، لذلك تسيطر عليها انفعالية أعظم.. وأجمل مظهر لهذه الانفعالية تلك التضحية البطولية حقا التي بها تزود المرأة عن الطفل وتهتم بأفراد أسرتها وترعاهم في حالات المرض. وبالعكس، أثناء الغضب تجد هذه الانفعالية تعبيرها الكريه. إلا أن الجوانب الجيدة مثل الجوانب السيئة يجري تشجيعها أو لجمها أو قلبها في المقام الأول عن طريق المنزلة الاجتماعية، فنفس الواقع الذي يظهر في ظروف غير ملائمة على أنه غلطة، يصبح في ظروف ملائمة منبعا للسعادة للشخص ذاته وللآخرين" (اورزولا شوي، 2006، ص27). ويواصل "بيل" كلامه: "كذلك تمتلك المرأة صبورا أكبر، مهارة يدوية أفضل، تجعلها تمارس عددا من الأعمال باتقان أعظم من الرجل". ونحن أيضا نعتقد بأنه تقسيم ملائم للعمل أن يترك للرجال الدفاع عن الوطن، وللنساء الاهتمام بالموطن والموقد".

إن الاشتراكية Socialism بهذا الفهم وهذا التطبيق، تعني بالنسبة للنساء الحفاظ على تقيدها ضمن إطار إعادة الإنتاج الخاص. وباعتبار أن هذا التقييد معقول وطبيعي، فإن هذا التقسيم للعمل لن يفهم على أنه اضطهاد اجتماعي جنساني، بل يقوم (بناء على نظرية انجلز) على أساس بيولوجي. وهكذا تبقى في هذه المجتمعات أيضا قدرة المرأة على الأمومة البيولوجية ذريعة لإلقاء مسؤولية الأمومة الاجتماعية على عاتق النساء وحدهن. بذلك تتفاقم في نفس الوقت مشكلة الأعباء المضاعفة لدى النساء.

ولا بأس -هنا- من تقديم مصطلح النظام الأبوي patriarchal dividend الذي طرحه "كونيل" والذي يشير إلى امتياز الرجل المكتسب من خلال إفرزات نظام تقسيم العمل الجندي الذي لا يشمل فقط عدم تساوي أجور الرجل مع أجور المرأة، بل عن طريق عملية تراكم الرأسمال المتأتية من البناء الاجتماعي للرجل في مجال الملكية والثقافة الاجتماعية والامتياز الجنسي.

إن قلة التفكير والسذاجة من الصعب أن يكونا من الكفاءات المغايرة والمساوية لكفاءات الرجل، وكذلك هو وضع الاستعداد للتضحية دون تأكيد الذات، والاندفاع والانفعال الزائد دون ترو. إن

هذه الخصائص أكثر مواءمة للاضطهاد من قبل الطائفة التي -بحكم بيولوجياها المزعومة- تتصف بتتكر أكبر وبالعقل والقوة. كذلك فإن مثال ملعقة الطبخ بدلا من السلاح، تدل بوضوح على هذه العلاقة السلطوية بين الجنسين.

المحور السابع: النوع كمبرر للتكامل

يُسلط الضوء في هذا المحور على تحقيق المبرر العام للتكامل للاختلاف النوعي/الجنسي على اعتبار ان الاختلاف مسألة ضرورية وحتمية من أجل الاستمرار والحياة ولولا هذا الاختلاف فإن مسألة الحياة تكون معدومة حتما ولا يمكن تصور الوجود الإنساني من دون هذا التمايز النوعي، فهو تمايز قهري للتواصل، وشأن حتمي لتحقيق مبدأ الاستمرارية الحياتية.

فالهوية الجندرية Gender Identity تعني قناعة الشخص الثابتة بانتماؤه لواحد من الجنسين تتشكل في زمن الطفولة الأولى - من سن السنتين إلى سن الأربع سنين- بحيث يصعب التخلص من الانطباعات الأولى المحيطة بها في هذا الصدد. هذه الهوية تتشكل بالاختلاف عن الآخر كأن يحدد الصبي نفسه بأنه عكس الأنثى (لا تبك كالصبيان.. لا تفرج فخذيك) لذلك فإن التقاطع بين السمات والأدوار وغيرها من المحددات الاجتماعية والثقافية للجنسين لدى الشخص كما هي صعبة القبول لدى الجماعة.

ولا مناص من تدوين وصف المنظر الاسترالي "كونيل" للجندر الذي عبّر عنه بأنه صيرورة مجسدة اجتماعيا أو ممارسات جسدية منعكسة أو سلوك اجتماعي يكون فيه الجسد وكالة وهدفا. بيد أن المشكلة القائمة هنا هي ربط الصيرورة المتجسدة اجتماعيا بالأبنية الاجتماعية التي تتغير من حقبة زمنية لأخرى أو تلتقي أو تجتمع بالصيرورة التاريخية التي يكون فيها المجتمع متجسدا، وتمسي الأجسام مرسومة من قبل التاريخ.

مصطلح الجندر هو ترجمة اجتماعية-حضارية للجنس البيولوجي الذي يسعى نحو توسيع المفهوم العام حول السؤال الاجتماعي الذي مفاده كيف ينبغي على النساء والرجال أن يتصرفوا ويظهروا بالتلاؤم مع المجتمع حسب رموز اجتماعية معرّفة قائمة على أفكار نمطية تبعية مقبولة في المجتمع.

إن المعاني الحديثة لكلمة gender لا تزال تحمل آثار هذه الاستعمالات التاريخية الأقدم. إذ يستمر gender في القيام بوظيفته كمصطلح نحوي، على سبيل المثال، إضافة إلى كونه تعبير ملطفا عن جنس الشخص مع أنه لم يعد يستعمل كمترادف للفعل الجنسي.

في نصف القرن الأول من التحليل النفسي كان استمرار تماهي النساء بالذكورة إلى الحياة البالغة - عقدة الذكورة لدى المرأة - موضوعاً مفضلاً لأجل التحليل: كان فهم السيرورة النفسية التي تفشل النساء البالغات بموجبها في التحلي عن مثل هذا "التماهي الطفولي" - المرحلة الذكورية - يعتقد أنه السبيل لفهم الجنسانية المثلية الأنثوية. في عام 1929م نشرت المحللة النفسية "جوان ريفيير" Joan Riviere مقالة أسرة حول معنى ما يدعي التماهي الذكوري لدى النساء "الأنثويات" من نواحٍ أخرى. إن مقالة "النسوة بوصفها تنكراً" womanliness as a masquerade قد سلطت الضوء على الحالة الأدائية للأنوثة. إذ تشكل "ريفيير" طليعة لتلك الجماعات من النساء المحترفات اللواتي كن يظهرن في تلك الفترة، النساء اللواتي برأيها: "يبدو أنهن يحققن كل محك للتطور الأنثوي الكامل. إنهن زوجات وأمهات ممتازات، وبنات منازل مقتدرات، إنهن يحفظن الحياة الاجتماعية ويساعدن الثقافة، ليس لديهن نقص في الاهتمامات الأنثوية، مثال ذلك اهتمامهن بمظهرهن الشخصي، وعندما يستدعين يظل بإمكانهن أن يجدن الوقت للعب دور الأمهات البديلات المخلصات والنزيبات ضمن حلقة واسعة من الأقارب والأصدقاء".

كما استخدم الاجتماعيون مصطلحي الجنس والنوع ليميزوا الذاتية الجنسية البيولوجية عن الأدوار النوعية المكتسبة، فبينما الجنس يشير للذاتية البيولوجية ذكرًا أم أنثى، نجد أن مفهوم النوع الأكثر دلالة كمفهوم اجتماعي لأننا نولد ذكورا أو إناثا ونصبح رجالا أو نساء من خلال التوقعات الثقافية والاجتماعية السائدة في المجتمع والمرتبطة بأعضاء كل جنس، وهذا التمييز في النوع هو الذي يحدد السلوك الاجتماعي من خلال التوقعات النوعية التي تسيطر على كيفية التعامل مع الجنس الآخر، وذلك من منطلق المفاهيم الثنائية للرجولة والأنوثة الذي يفصل بين الرجال والنساء كل منهما في مقابل الآخر.

كذلك يحدد أيضا التقسيم الاجتماعي بين الجنسين، الأساس الذي يوضع عليه الرجال والنساء في "فئتين متبادلتين الاستبعاد". إن "روبن Rubin" إذ تشير إلى ما كانت تراه بوصفه الاعتباطية المتأصلة في هذه المناطق، تلح على أن الرجال والنساء مختلفون بالطبع لكنهم ليسوا مختلفين كما الليل والنهار، الأرض والسماء، الحياة والموت. في الحقيقة؛ ومن وجهة نظر الطبيعة، فإن الرجال والنساء أقرب إلى بعضهما البعض من أي شيء آخر. على سبيل المثال، الجبال، حيوانات الكنغارو أو نخيل جوز الهند. أن فكرة أن الرجال والنساء هم أكثر اختلافا عن بعضهما البعض من اختلاف أي منهما عن أي شيء آخر لا بد أن تأتي من مكان غير الطبيعة.... الهوية الجنسية الحصرية، بعيدا عن كونها تعبيراً عن اختلافات طبيعية، هي قمع للتشابهات

الطبيعية. إنها تتطلب الكبت لدى الرجال، كبت أي طبعة محلية من الصفات "الأنثوية" لدى النساء، كبت التعريف المحلي للصفات "الذكورية". إن لانقسام الجنسين تأثير كبت بعض الخواص المميزة للشخصية لكل شخص على نحو افتراضي، رجالاً ونساءً.

أما لفظ التكافؤ Equivalence فهو مصطلح ظهر في أوروبا، في الثمانينات من القرن العشرين، ولا يزال ماثلاً في الجدل الفرنسي منذ عقد من السنين، وقد استمد من المعجم النقدي أو الاجتماعي. ولما كان هذا اللفظ موضع الرهان في معارك أيديولوجية وفلسفية، فقد أوتي قيمة أن يصير مبدأً فلسفياً جديداً يحث على التحرر، أو اعتبر خلافاً لذلك، تقليداً سياسياً شاحباً، أو عدّ جزءاً من آلية ذلك التقليد. ومع ذلك يمكن أن تتبدى فائدته ببساطة: إذ يضيف على مبدأ المساواة بين الجنسين صورة عملية، ولهذا عدّ "لباساً للمساواة" وتغطية لها. إن لفظ التكافؤ أو التعادل في معناه الحق هو أداة، ويعتبر أداة جيدة للنضال السياسي بمقدار ما هو صالح لقراءة نقصان المساواة أو تقدمها.

والحال أن مفهوم التكافؤ هذا، شأن الرقم الدال على عدم المساواة. بمعنى أنه لا يقدم شيئاً سوى مفهوم التساوي، ولا يفترض ما يتجاوز مبدأ المساواة نفسه.

وبالعودة إلى الجدل المزيف حول المساواة بالتعارض مع الاختلاف، نجد مفهومين بتنا ندرك أنهما ينتميان إلى سجلين مختلفين: الأول سياسي وهو المساواة Equivalence، والثاني أنطولوجي وهو الاختلاف Difference. ومعرفة بسيطة في الفلسفة تتيح لنا أن ندرك بأن العبارة المقابلة للاختلاف هي الهوية Identity.

ثم إننا في مواجهة المفهومين الأنطولوجيين اللذين أدركناهما، الهوية من جانب، ومن جانب آخر الاختلاف، يسعنا أن ننير التساؤل السياسي التالي: ما القول في المساواة؟ ولسوف يطرح السؤال على كل من هذين المفهومين على التوالي. ولو سُئلت الهوية، لأجابت بيسر: إذا كان الرجال والنساء متشابهين، ولا سيّما بهويتهم التي تعدّهم بشراً عاقلين، فإن المساواة تنطبق عليهم بكل بساطة، وتلك هي الحال بالنسبة للتعلم والمواطنة. أما أن يكون المرء ناخباً، أو المرأة ناخبة، فهذا أمر قليل الشأن (وحده الزمان يكون مختلفاً لإحقاق هذا الحق). أما المساواة حيال اختلاف الأجسام فيمكن أن يكتشف أن التفكير فيها أصعب.

خاتمة

كان هذا البحث بمثابة مدخل نظري في تأسيس نظرية عامة عن مبدأ التكامل الذي يبرر حالة التوافق بين الجنسين المختلفين ظاهرياً وضرورياً والمتوافقين أو المتكاملين اجتماعياً وحياتياً. وقد

ناقشنا فيه عدة قضايا مهمة تدخل على نحو مباشر في صميم الموضوع المراد بحثه، فقد أعمل الباحث جهده في بيان ومناقشة وتحليل المدارس والنظريات المختلفة للعملية الجنسية وآراء الباحثين والعلماء في هذا المجال.

وتم -أيضا- استعراض المدونة التاريخية وأصول الفروق الجنسية بين النوعين، ومسألة التفريق بين الواقع البيولوجي والاجتماعي للجنس والاختلاف بينهما، كما قمنا بتحليل أثر البيئة والمجتمع على تعزيز الرؤية النوعية سواء كان للذكر أو للأنثى. وأن تقسيم العمل أرغم منذ البداية على توزيع أدوار رجولية وأخرى أنثوية وإن هذا التصنيف أو التوزيع كان له الأثر الكبير في مأسسة الواقع الجنسي/النوعي.

وختاما؛ فإن بحثنا هذا هو مقدمة لدراسة كبيرة مستقبلا، سوف نتجاوز فيها الاختصار والإيجاز إلى التوسع في بيان وتحليل وشرح المقتضيات اللازمة لموضوعات الدراسة بما ينسجم مع أهمية الموضوع وتأثيراته التاريخية والمعرفية.

المصادر العربية

- 1- أ. ميشيل، استشهاد مأخوذ من سفارتسر: الفرق الصغير وتبعاته الكبيرة، فرانكفورت أم ماين، فيشر، 1975.
- 2- ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث، ج 1.
- 3- إلهام عبد الرحمن عثمان إسماعيل: نظريات علم الاجتماع والنوع، دار عزة للنشر والتوزيع، 2008.
- 4- انتوني غدنز: علم الاجتماع، ترجمة وتقديم: فايز الصباغ، ط3، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2005.
- 5- أورزولا شوي: أصل الفرق بين الجنسين، ترجمة: بو علي ياسين، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.
- 6- إيفلين آشتون: جونز جاري، أ. اولسون: النوع؛ الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف، ترجمة: محمد قدرى عمارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006.
- 7- إيمي. إس. وارتن: علم اجتماع النوع؛ مقدمة في النظرية والبحث، ترجمة: هاني خميس أحمد عبده، المركز القومي للترجمة، ط1، 2014.
- 8- بلقيس بدري: الدليل التدريبي للتخطيط الواعي للنوع، معهد دراسات المرأة والنوع والتنمية، 2003.
- 9- حسين فهميم: قصة الانثروبولوجيا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، 1986.
- 10- ديفيد غلوفر: كورا كابلان: الجنوسة (الجندر)، ترجمة: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2008.

- 11-سارة جامبل: النسوية وما بعد النسوية، ترجمة: أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.
- 12-شارلوت سيمور -سميث: موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية؛ ترجمة:محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.
- 13-عز الدين دياب: دراسات أنثروبولوجية تطبيقية، الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع، ط1، 2006.
- 14-غيدا ضاهر: الذكورة والأنوثة في لبنان؛ دراسة في أوساط طلاب الجامعة، منتدى المعارف-بيروت، ط1، 2011.
- 15-فانتن محمد رشيد: دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الصفوة، القاهرة، 2017.
- 16-فاطمة الكتاني: الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية، دار الشروق النشر والتوزيع، الاردن، 2000.
- 17-مجموعة من الباحثين: التذكير والتأنيث (الجنس)؛ من أجل حوار بين الثقافات، ترجمة: انطوان ابو زيد، سلسلة مفاهيم عالمية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005.
- 18-محمد لبيب النجيجي: الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1978.
- 19-معن خليل العمر: علم اجتماع الجنس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 2015.
- 20-معن خليل العمر: التنشئة الاجتماعية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الاردن، 2004.
- 21-مي غصوب و ايما سنكلير ويب: الرجولة المتخيلة، دار الساقى، بيروت، 2002.

المصادر الأجنبية

- 1- Barnouw, Victor; An Introduction to Anthropology; "four edition"; The Dorsey Press; U.S.A; 1988.
- 2- Franco Eornari, Sexualite et culture (Paris: PUF, 1980).
- 3- "Gender difference in extreme mathematical achievement: An International perspective on biological and social factors." American Journal of Sociology 114.
- 4- (Hyde, J.S. and Mertz, J. E. 2009): "Gender, culture, and mathematics performance." Proceedings National Academy Science USA 106: (8801-8807.) and (Penner, A.M. 2008).
- 5- Moore,C. Camella and Mathews.F. Holly; The Psychology of Cultural Experience; Cambridge University press; United Kingdom; 2001.
- 6- Virginia Woolf, A Room of On's Own, (Harvest Books, 1989; c.1929).